

## الفصل العاشر

### أعظم القوم حاتم

" إنه ما من رجل غير محمد نذر نفسه لمدف كمد المدف ،  
فقد كان هذا المدف مما يفوق القدرة البشرية . هدم المعتقدات الساطلة  
السنني تتخذ زلقى وواسطة بين الخالق .. ، رد الله إلى الإنسان ، والإنسان  
إلى الله ... ، الفكرة العقلانية والقدسية للألوهية الصحيحة في هذا السديم  
من الشرك والوثنية .... ما من رجل سوى محمد أنجز بمثل وسائله  
الضعيفة عملا كهذا العمل الذي يتجاوز الطلوف وبفوق طاقة البشر ، ذلك  
لأنه لم يعتمد في تصور و إنجاز مقصد عظيم كهذا المقصد إلا على نفسه ،  
ثم قلة من الاميين في ركن من اركان الصحراء .

ثم انه ما من رجل عدا محمد استطاع أن في مثل هذا الوقت  
القصير يترقى إلى مثل هذه العظمة والاستمرار ، إذ ما أن مضى اقل من  
قرنين على مبعثه حتى ساد الإسلام المبشر به أرجاء البلاد العربية كلما  
كاسبا لتوحيد الله كلا من الفرس وخراسان وجنوب الاتحاد السوفيتي  
والقوقاز ، وأسبانيا ، وجزءا من بلاد الغال".  
◦ شاعر هونسا الكبير : لامرئين .

obeikandi.com

لقد شهدت الإنسانية الكثير من الفتوحات في مختلف المجالات ، وتلك الفتوحات هي التي أعطت للإنسانية وجهها المشرق الوضاء ، ودفعتها في مضامير التطور والتقدم ، سواء في المجالات الفكرية والعلمية والأدبية . وأصبحت الإنسانية تدين لأصحاب تلك الفتوحات وتجلهم ، وتبوأهم مكانة عظيمة تتناسب وما قدموه للإنسانية .

ولكن أعظم تلك الفتوحات ، الفتوحات التي تمت في مجال الضمير الإنساني . لأن أي تطور أو تقدم إن لم يكن دافعه ومحرزه الضمير فلا قيمة له؛ لأن الضمير هو أصل وأشرف محفز للإنسان ، أن يضع مصلحة الإنسانية فوق كل وأي إعتبار وهناك من يعتبر أن الفتوحات العلمية هي أعظم تلك الفتوحات . لأنها هي التي نقلت الإنسانية أو عبرت بها من مرحلة إلى أخرى ، أو خلقتها خلقا آخر ولولا تلك الفتوحات العلمية لبقى الإنسان وطل في ربكة الجهل والتخلف ، تضى عليه القرون فما تزيده إلا تخلفا وتأخرا ، ولكن إذا نظرنا إلى تلك الفتوحات فسنجد أنها ما كانت لتفتح للإنسانية أبوابا وطرقا ومجالات إلى المستقبل إلا بقدر ما توافر لدى أصحابها قسما ونصيبا من بواعث ونوازع الضمير ، وإلا لطلت تلك الفتوحات محرد أفكار هائمة في رؤوس أصحابها ، أو لبقيت حكرا على فئة دون فئة ، وهذا في حد ذاته ينتقص من كونها فتوحات ، لأن الفتوحات لا تعد كذلك إلا لأن نفعها عم البشرية بأسرها ، من تحمل ضريرتها أو من لم يتحمل . من بذل في سبيلها الكثير ومن لم يقدم أي شيء ، ولا بد أن تصدر البشرية حكما وصكا أن هذا فتح أفادها في ماضيها وبيدها في حاضرها ، وسينفعها في مستقبلها والإنسانية لا تشغلها المنافع المادية أو العاجلة ، بقدر ما يشغلها ما ينفعها في آجلها ، ويقوم منها الضمير ، وما يجعل أحكامه هي المهيمنة ، وهو القاضي الذي تلجا إليه كلما دفعها دافع إلى ذلك . وكل تلك الأوصاف لا تنطبق بحق إلا على الرسائل السماوية ، فهي الفتوحات التي شهدتها الإنسانية على مدار تاريخها

الطويل ، لأن كل تلك الرسائل قد أكدت على شيء واحد ، أن الضمير يجب أن يقود الإنسان في حياته على تلك الأرض ، وليس شيئاً آخر .

عَم ، كدبر من الدعوات والرسائل - تنل قسداً من انبجاح ، وابعثر وصل إلى درجة متواضعة من التوفيق والنجاح ، ولكن ذلك إن حتى تتك في تد توفيق تركت أثراً ، وسجلت علامة ونبهت الأذهان ، بل ويعتد البشر في ضمير وهذا النض - وإن كان ضعيفا - فهو دليل - وإن لم يكن قويا - على عبادة الكاملة ، إلا أنه إشارة على أن الضمير لم يمتهن ، وأن هناك أنفاس متقطعة واهنة تتردد بين الحين والآخر ، وأن هناك حركة ضعيفة تلمحها العين الفاحصة ، وأعداء الضمير على مر التاريخ أرادوا أن يكون الضمير على تلك الدرجة من الضعف والوهن ، ليس هو باليت ، وليس هو بالحي ، أما لماذا لم يجهز على الضمير ، ويوجه إليه طعنة قاتلة ويستريح أعداء الضمير منه ، فهذا يرجع للأسرى :

- أن الضمير هو صوت الله الذي يتردد بدون توقف في هذا الكون الواسع أو هو نور الله ، والصوت والنور من المكونات الأساسية والأصيلة في هذا الكون ، وأن تهدم هذا الكون ، فهذا شيء خارج طوق وقدرة الإنسان ، إذن الضمير قدر مقدور على البشرية .

- أعدى أعداء الضمير يريدونه ويحافظون عليه ، لا لكي ينتشر ويسود في حياة الناس ، ولكن ليهمنوا ويتحكموا فيه ؛ لأنهم يعلمون أنه قادر على أن يعيش في أي مكان وتحت أي ظروف قاسية . وكذلك قادر على أن ينمو ويكبر ، وأن يكون له الكلمة العليا ، وهذا يمثل أكبر الخطر عليهم ، وعلى مشاريعهم ، أما لماذا لا يتخلصون منه نهائياً ؟ لأن أكبر مكاسبهم ما يحققونه باسمه ، فكيف يخدمون الآخرين الخديعة الكبرى إلا وهو معهم ولكنه ضمير مروض ، مخدر ، مسلوب الإرادة ، ممنوع عن الفعل والعمل

وعندما يستعصى الضمير على الترويض والخضوع ، ويعلم عن نفسه ، ويبدأ في أخذ حقه المشروع ، فإنهم يضحون به على أقرب مذبح !  
وتاريخ البشرية حافل بالمواقف والمواقف والمعارك ، التي ذبح فيها الضمير ذبحا مجسدا في صورة أنبياء ورسول ومصالحين وقادة وثوار ، وقفوا صامدين أمام الظلم والاستبداد والبطش والجبروت . وكانت نهاية بعض هؤلاء مؤسفة في زمانهم ، ولكن كانت مناسط العظمة والعبرة لكل الأجيال المتعاقبة . وملهما ودافعا وباعثا لاستمرار روح الضمير تطوف في سماء الإنسانية ؛ لتبقى شاهدا على سمو ورفي هذه الجبلبة التي شاءت إرادة الله أن تشتمل على قس من نور وصوت الله عز وجل .

وعلى قدر عظمة الفتح تكون القوة المناهضة والمعارضة له ، وإذا كانت طموحات الفاتح متواضعة هينة ، فإنه يستدعي ويستنفر ويستثير من المعارضة ما يتوافق وتلك الطموحات ، وإذا كانت طموحاته بلا حدود ، فالمعارك التي سيثيرها ستكون بلا حدود أيضا .

وطموحات رسول الله - ﷺ - أو طبيعة الدعوة التي نذر نفسه لها ليست لها حدود ، فقبل أن يستقر الأمر له في الجزيرة العربية ، وما يزال الإسلام غضا طريا ، وعود المسلمين ما يزال ليئا ، يتلقى الضربات والطعنات من هنا وهناك ، أرسل النبي رسله إلى خارج الجزيرة لأكبر إمبراطوريتين في ذلك الوقت ، وأيضا إلى النجاشي وإلى مصر ، يدعوهم إلى الدخول في الإسلام .

وبالفعل أثارت تلك الدعوات التي وجهها رسول الله الكثير من الغضب عند البعض ، حتى أن الروم فكروا في تجهيز حملة تخترق الجزيرة العربية وتأتي بهذا النبي مقربا في الأصفاد عقابا له على جرأته في مخاطبتهم بتلك الطريقة وهذا الأسلوب !

دعوة تلك طبيعتها ، أنها إلى الناس كافة ، ممتدة ما امتدت الأرض أمامها متبصرة ما اتسع الفضاء .

وداع تلك طبيعته وشخصيته ، يجسد الدعوة تجسيدا صادقا ، يرى أن تكون دعوته هي الكلمة الأخيرة في النشيد الإلهي المقدس لأهل الأرض ، وأن تلك الكلمة - التي لا كلمة بعدها - ينبغي أن تعيها كل الأذان ، وأن تستوعبها كل القلوب ، وأن تفهمها كل العقول . وأن تكون من القوة والوضوح والسطوع ، وأن لا شيء يحجبها وأن لا شيء يخفيها ، وأن لا شيء يمنعها عن الناس أو يمنع الناس عنها . وأن لا تتعرض الدعوة - كما تعرض غيرها - للخذلان والهزيع والحديعة .

طبيعة الدعوة هنا ، وطبيعة شخصية الداعي ، تحتم أن تكون القوة ليست ترفا أو وسيلة أو صورة ، القوة هنا والسيف من صميم الدعوة . بحيث إذا تخلت الدعوة عن القوة ، فقد تخلت عن جزء من طبيعتها . وإذا تخلت عن هذا الجزء - بالتحديد - فقد تعرضت للانكشاف ، وإذا انكشفت فإن بنيانها الشامخ والراسخ قابل لأن يتداعى وينهار .

وأصحاب الدعوى أن الإسلام انتشر بالسيف .

وأصحاب الدعوى أن الإسلام لم ينتشر بالسيف .

كلاهما على خطأ ، لأن كلا الرأيين ، يفصل بين الدعوة وطبيعتها ، أو يريد أن يحزى شيئا لا يتحرز ، أو يفصل شيئا واحدا ، فليست القوة من أليات الدعوة الإسلامية ، وليست القوة من أساليب وطرق الدعوة الإسلامية ، القوة هنا من طبيعة الدعوة . الفرق هنا كالفرق بين وعود نبي وحوله وأمامه وعلى يمينه ويساره حنود تحرسه وتدافع عنه وتنافح دونه . وبين نبي هو من يتولى حراسة نفسه والدفاع والجهاد عن نفسه ، ليس هذا فحسب بل من حوله يحتمون به ويلوذون به ويلجئون إليه ، ويستمدون منه القوة والشجاعة .

فالقوة بالنسبة للدعوة ليست كالسلاح للجندي ، يحمله وقت اللزوم ، ويتركه حينما لا يكون في حاجة إليه ، القوة نسيج حي من أنسجة الدعوة الإسلامية ، خلية أو خلايا رئيسية تدخل في تكوين كيان الدعوة ، وإذا أبطلت عمل تلك الخلايا

فأنت لا تدري مدى الخلل الذي سيتغلغل في الكيان ، ولا تدري متى يتقويض ويتداعى هذا الكيان .

ولكن أي قوة ؟

حينما تعرف ملامح وسمات ومجال استخدامات تلك القوة والمحظورات والموانع المحاطة بها ، تدرك أن السيف في الإسلام لم يكن سيفا مسلحا على رقاب العباد ، ولكنه كان كمبضع الجراح لا يزيد ولا يجور ولا يتعمق أكثر مما هو مسموح به بأي حال من الأحوال ، وإذا استخدم فهو يستخدم لئلا واستئصال الأجزاء المريضة المتليفة الخبيثة التي يمثل بقاؤها خطرا محققا على الكيان الحي ، فهي أجزاء متسرطنة أكل وأتلف ودمر السرطان خلاياها ، وسوف ينتقل ويتسرب في صمت رهيب يسكون مفرغ إلى بقية أعضاء الكائن ليدمر ويتلف ويبعث ... كما البئر ليس قسوة ، والاستئصال ليس تحجر مشاعر ، ولكنه في قمة الرحمة وفي ذروة الشفقة ، فكل ما تفعله رائدك وهدفك هو استبقاء الكائن الحي وإنقاذه من موت محقق ، من نهاية مأساوية سيصل إليها عن طريق الآلام والمعاناة والعداب .

يكفي أن القوة هنا الذي سمع واذن باستخدامها هو الله - عز وجل - والمستخدم لها هو نبي ، والجيوش هي جيوش نبي تأتمر بأوامره وتنتهي بنواحيه .

" وهو دين يعلوا بالقوة ويدعو إليها ، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ويستفرغ همه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإنزال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، إن هذه إما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ، وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية " ١٥٨ .

١٥٨- من مقال بعنوان (الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام) مصطفى صادق الرافعي- مجلة الأزهر ربيع الأول ١٤٣٣ - فبراير ٢٠١٣ الجزء ٣ السنة " ٨٤ "

إذن طبيعة الدعوة الإسلامية تستنفر وتستفز جيوش لا حصر لها من الأعداء والمعارضين ؛ لأنها دعوة – ولأول مرة في التاريخ الإنساني – تخطت الزمان والمكان ، ليس هذا فحسب بل هي التي تصوغ زمانها ومكانها ، ولن يتأتى لها ذلك إلا إذا أصبحت كل الأمكنة هي مكانها ، وكل الأزمنة هي زمانها .

وطبيعة الداع – النبي – تستنفر وتستفز العد . . فما فطر عليه – ﷺ – من قوة وصلابة وإرادة وتصميم ومضاء عزم وقناة لا تلين وعزيمة وحماس لا يفتران وعدم قبول بأنصاف الحلول ، كل هذا يجعل هناك نوعية وحيدة من العلاقات التي تربط بينه وبين من حوله ، فإما أن تنضوي تحت لواء دعوته ، وإما أن تتركه لشأنه وتذهب لشأنك ، وإما أن يكون التحدي ، التحدي المصيري ، الذي يدفعه أن يضحي بأي شيء وكل شيء في سبيل الوصول إلى هدفه وتحقيق قصده . وفي فصول هذا الكتاب ، قلنا أن هناك تطابقا وتكاملا وتوافقا تام بين الدعوة وصاحبها فشخصية النبي مستعدة ملامحها وخطوطها وسماتها من الدعوة . وشخصية محمد نحسب شي لتلك الدعوة . فإذا كانت القوة مكونا أساسيا ، او طبيعة من طبائع تلك الدعوة . فشخصية الرسول كذلك ، تنطلق في كل أفعالها وأفعالها تلك الطبيعة . هذه الخصيصة في شخصية محمد تلقي الضوء وتفسر الكثير من القضايا فالبعض يتعجب ، من أين استمد محمد تلك الخبرة العسكرية في قيادة الجيوش وهو لم يسبق له أن خاض أي معركة أو تلقى خبرة عسكرية من أي قائد ، أو عمل تحت إمرته ليعلمه من فنون الحرب وأساليب القتال ؟ ومع ذلك لم يخض الرسول غمار أي غزوة إلا وحالفه التوفيق وكان النصر يسير في ركابه أينما سار .

قد يجيب البعض بأن هذا التوفيق والسداد والنجاح في غزوات الرسول راجع إلى الوحي الذي يهديه ويرشده .

ونحن لا ننكر ذلك ، ولكن كثير من الغزوات التي خاضها الرسول والمسلمون كانت نتيجة تدير عقلي صرف ، وأن الوحي لم يتدخل لا من قريب ولا من بعيد

وأن الوحي لم يشر على الرسول بأي خطة أو مناورة أو حركات تكتيكية ، وأن الرسول في تلك الحالة وهذا الموقف لم يستهد ولم يسترشد سوى بعقله وبعد نظره وسداد رأيه ومشورة الصحابة .

ولكن هذا يحيلنا إلى البداية التي بدأنا منها ، ويظهر السؤال أمامنا مرة أخرى : كيف تسنى للرسول هذا النجاح والتوفيق في كل غزواته ، حتى تلك التي هزم فيها المسلمون ، فما حدث في تلك الغزوات لم يكن راجعا إلى سوء تخطيط أو إلى سوء تقدير ولكن كان راجعا إلى مخالفة تعليمات وأوامر القائد ، وعدم الالتزام الحرفي بأوامره .... كيف لرجل يقود تلك الجيوش ، وهو لم يتدرب ولم تكن له خبرة سابقة ، ولم يؤثر عنه قبل ذلك أنه قائد حتى سرية ، ولم يؤثر عنه الميل أو التفكير بأي شيء ، يتعلق بأمر الحرب والكر والفر ؟

ولكن من قائل أن النصر في الحروب راجع إلى خبرة وعلم ومعرفة القائد ؟  
فالتاريخ يحدثنا أن أكثر القواد خبرة وعلم ومعرفة ، كل هذا لم يمنعهم من أن يذوقوا مرارة الهزيمة ، وكسرت جيوشهم وهزمت شر هزيمة .

إن ليس العلم والخبرة والدرية هم الأسباب الوحيدة التي يكون عليها المعول في النصر أو الهزيمة . بل هي أسباب من ضمن أسباب أخرى ، قد لا تكون فعالة إن لم تنضم أو ينضم إليها بقية العناصر ، بل إنها قد تورد الجيوش موارد الخسران والهزيمة إن اعتمد عليها القائد دون غيرها . لأن الخطة التي يضعها القائد قد تكون خطة عبقرية لا مثيل لها ، ولكن كل هذا والخطة ما تزال أفكارا هائمة في رأس صاحبها ، أو خطوط متعرجة أو مستقيمة أو متقاطعة على الورق أو على أرضية الميدان ، أما حين تطبق تلك الأفكار وتجسد تلك الخطوط في الواقع وعلى الأرض ، ومن خلال الآلاف من البشر ، مطلوب منهم الشجاعة والجرأة والتضحية بانفسهم وأرواحهم وبذل مهجهم والاستماتة والصبر .... فالأمر هنا مختلف ، بل أن التاريخ يحدثنا أن كثيرا من الأفكار والخطط حينما نفذت وطلبت على أرض

الواقع تغيرت تغيرا كاملا ، بل لا يكاد لا يكون هناك أي علاقة بين ما وضع على الورق وما نفذ سواء كانت النتيجة نصرا أو هزيمة .

إذن الجيوش لا تقاد بأفكار أو خطط ، كذلك النصر لا يتحقق بتلك الأفكار والخطط ... الأمر أكبر من ذلك وأشمل وأخطر وأعقد .

ورب سائل يسأل : هل إذا توافرت الأمور - بل كل الأمور - للقائد ، ولم يتوافر العلم والخبرة والخطط والأفكار ... هل هذا يحقق النصر ؟  
الإجابة بالنفي طبعاً .

فكل الأمور لا تغني عن العلم والخبرة والخطوة المحكّمة والأفكار المبتكرة فنحن لا نستبعد أي عنصر من العناصر المحققة للنصر ، وإن كنا نستطيع أن نقول أيهم أهم وأيهم الأهم ، فهنا يجب أن يحدث تكامل وتجميع للعناصر ، وليس إنقاص أو تشتيت أو تفريق .

إذن لا غنى عن العلم والخبرة ... فمن أين حصل عليها رسول الله ؟

ينبغي أن نوضح أولاً أن العلم والخبرة والمعرفة وسائل أو طرق أو أساليب تتبعها أو نسترشد بها لتصل بنا إلى نتيجة مرجوة أو مبتغاة . أو قل إنها طرق ووسائل وأساليب لترقية العقل أو صقله أو إكسابه القدرة والاستطاعة على حسن التصرف ، أو فتح أمامه سبلا متعددة للحركة والتصرف ، أو إمداده بالبدائل الكثيرة والمتعددة - وأيضا - تمكينه من اختيار أفضل وأحسن البدائل التي تساعد وتساهم في تحقيق الهدف في أسرع وقت وبأقل جهد أو كلفة .

وإن لم يحقق العلم والمعرفة والخبرة هذه النتائج فلا قيمة لهم ، وكثيرا ما وجد العلم والمعرفة والخبرة ولم نر أي نتيجة ، فليس من اللازم اللادب أن يكون لكل علم ومعرفة وخبرة نتيجة ، كذلك ليس من اللازم اللادب أن يكون هناك نتيجة لكل علم ومعرفة وخبرة .

وتفسير ذلك يرجع إلى الشخصية .

هناك شخصيات في غنى عن العلم والخبرة ، ليس لأنها ليست في حاجة إليها ، ولكن لأنها وهبت طبيعة خاصة ، تلك الطبيعة الخاصة وصلت بها وفي أحيان كثيرة تجاوزت ما يصل إليه الشخص بالعلم والخبرة ، فالعلم والخبرة يزودان شخصية الإنسان بخصائص وسمات ما ، تلك السمات والخصائص هي التي تفرق بين الإنسان العالم الخبير وبين غيره مما لم يحصل على تلك الأمور، تلك الخصائص والسمات هناك شخصيات تحصل عليها بغير تلك الطرق ، خلقت بها وصلت إليها بطريقة ما ، بغير تلك الطرق المتعارف عليها ، هذا الشيء تجده بين الحشرات والطيور والحيوانات .

فهن يدركن أمورا أو يسلكن سلوكا ما أو يتصرفن تصرفا ما ، تلك الأمور أو السلوك أو التصرف معقد بصورة كبيرة بحيث ينالك العجب ، كيف لا ت الكائنات أن تتصرف على تلك الصورة وهي لم تفل قسما من التعليم أو المعرفة أو حتى الخبرة .

وقد حللنا - نحن البشر - تلك المعضلة - بالنسبة لنا بأن قلنا إن تلك الكائنات تتصرف بوحى من الفطرة أو الغريزة ، هذه الفطرة أو الغريزة تغني عن كل تعلم ومعرفة وخبرة ، بل أن الذي تعلم وعرف ومارس الخبرة يعجز أن يتصرف على مثالهين ؛ لأن الذي تعلم وعرف وخبر قد تخونه تلك الأمور ، أو تتخلى عنه في بعض المواقف أو يسيئ استعمالها أو يخطئ في التصرف أو .... أو.....

لأن العلم والخبرة لم تنزل من كيانه منزلة الطبع والسليقة ، وإنما هي أشياء مكتسبة ، وتظل مكتسبة ، أي طارئة على شخصيته ، وهناك فرق هام بين من يتصرف بوحى الفطرة والغريزة ، ومن يتصرف وفقا لما تمليه عليه خبرته وعلمه .

أن الأول لا يملك أن يبدل أو يغير أو يحول أو يوقف إملاءات الفطرة والغريزة ، أو أن يقلل من حدتها أو سورتها ، كذلك ليس هناك من سلطان عليها حتى صاحبها ، فهي تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس ، والنور عن القمر

والأريخ عن الزهرة ، بينما الثاني يناقض هذا تماما في كل شئ ، فقد يتصرف العالم الخبير تصرف الجاهل العاقل من كل خبرة ، وقد يتعرض لضفوفات ومؤثرات تجعله يغفل أو ينسى أو يغير أو يبدل ويحول ... إلخ .

ومع ذلك فالعتمد والمعترف به عندنا نحن البشر هما العلم والخبرة ، وليس شئ آخر ، لأن أمر القطرة أو الغريزة لا يتوافر وجوده إلا في أحاد الناس كالأنبياء والرسل والقواد والزعماء ، أما الملايين فالأمر معهم يرجع إلى العلم والخبرة والإنسانية لا تستطيع أن تقيم بنيانها العلمي على ما لا يتوافر إلا في أحاد الناس ولا يوجد في الملايين ، ولكن وجوده في الأحاد وعدم وجوده في الملايين لا ينفيه بل يؤكد ويثبتته .

#### ◦ الأمر بالنسبة لمحمد ﷺ :

وليس معنى أن محمدا رجل أُمي ، لم يتلق علما كغيره ، لأنه لم يقرأ والقراءة هي الوسيلة الرئيسية في تلقي وتحصيل العلم ، ليس معنى أنه لم يحصل على العلم بالطرق المتعارف عليها أنه جاهل أو عطل من أي علم أو معرفة ، فلديه من السمات والخصائص والخلال والمواهب ما يمنحه العلم والمعرفة والخبرة ، بل أكثر بكثير ، فالعلم والخبرة المكتسبة لها حدود ، محدودة بزمانها ومكانها ومصدرها وبحالة المرسل لها وبحالة المستقبل لها ، ووليدة العقل والمنطق أو هي خاضعة له وهذان - أيضا - لهما حدود ومستويات . الأمر مع محمد تجاوز كل تلك الأمور وربما تكون هذه هي الحكمة من وراء جعله لا يقرأ ، حتى لا يشغل بما يمكن أن يتلقاه من علم ومعرفة ، عما هو مركز في فطرته وثابت في طبعه ، أو أن يحجب ما اكتسبه ما هو فطري ، أو يقلل ما هو تطبع في شخصيته عما هو طبيعي ، فمحمد لم يحصل على العلم والمعرفة من مصدر بشري ، كيف وهو المصدر لكل علم ومعرفة ؟ ومحمد لم يكن في حاجة لأنه هو المنبع ، ومع ذلك فقد فتح عقله وفكره لكل ما في زمنه من علم ومعرفة ، لتكون متواصلة ومتجاوبة ومتفاهمة ومتفاعلة مع قضايا

ومشكلات ومآزق زمنه ، أو قل أن تلك الشخصية اشترت أجمل وأفضل وأحسن ما في رياض العلم والمعرفة ، واصطفت واختارت ماله نفع وجدوى للإنسان ، وما أخذه طبقه بعيدا عن الهوى والمصلحة الشخصية ، فكل ما فعله كان رائده النفع للإنسانية ليس في حاضرها فحسب ، بل أيضا في مستقبلها ، ليس القريب ولكن البعيد ، بل ما ينفعها طالما كانت موجودة فوق تلك الأرض .

والعلم والمعرفة مع محمد ، ليس كالعلم والمعرفة مع غيره ، فكثيرا بل دائما ما أثرت شخصية العالم على علمه ، وتدخلت نوازع وميول الشخصية في تحجيم درجة الإفادة من هذا العلم ، بل أن التاريخ يحدثنا أن كثيرا من العلماء قد أضروا البشرية بعلمهم أكثر مما نفعوا .

وقد كان محمد متواضعا متسامحا متفتح العقل والوجدان ، محبا للحياة وللشرف والخير والجمال ، يقدر القيمة الإنسانية ، لا يذري منها حتى العيوب والنقائص ، بل يعاملها برفق وشفقة ، محاولا جبر هذا الضعف ، مقدرًا المواهب مشحعا أي مقدرًا ، محتفلا بأي عبقرية ، فلم يكن علمه ومعرفته - التي لا نظير ولا مثيل لهما - يحجبان من حوله أو يقللان من شأنهم ، لأنه كان يتوج تلك المعرفة وهذا العلم خبرة ودراية عجيبة ونادرة بطبائع النفوس وسبر لأغوارها ومعرفة لمعدنها ، فكان يفتح المجال أمامها ويقوم بتشجيعها ورعايتها ودفعها وحضها لذلك جمع محمد حوله أنواعا وأصنافا ودروبا شتى من النواخب والعبقریات في جميع المجالات التي تحتاجها أي دعوة أو رسالة " أحاط بالنبي ﷺ نخذة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والأقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب مختلفون في الأمزجة والأخلاق ، مختلفون في ملكات العقول وضروب الكفايات مختلفون في فهم الدين وبواعث الإسلام فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الإنسان ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته

التي هو أصلح لها وأقدر عليها ، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال . بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال .

وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبي إياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس ، وسبره العميق لأغوار الطباع والأفكار<sup>١٥٩</sup> .

### ○ استراتيجيات مبكرة :

لكل دولة ولكل إمبراطورية أمنها القومي . أي تلك المساحة أو الحدود خارج مناطق نفوذها الفعلي والتي تكون مؤمنة ولا تمثل خطرا لا في الحاضر ولا في المستقبل . ولا تكون مؤمنة إلا إذا كانت بعيدة عن هيمنة وسيطرة أي قوة غريبة أو عدو قد يمثل خطورة أو تهديدا من أي نوع على الدولة أو الإمبراطورية .

فلا تستطيع أي دولة أو إمبراطورية أن تعيش داخل حدودها مكثفة بتوفير وسائل الأمن والسلامة غاضة نظرها عما يحدث خارج تلك الحدود ؛ لأن كل الأخطار والتحديات التي تمس وجود الدولة أو الإمبراطورية أتية من خارج الحدود ومن موانع بعيدة جدا . قد لا يفكر أحد أنها تمثل خطرا أو تهديدا .

هذا الإجراء من سمات الفكر الاستراتيجي في أعلى مستوياته . وبقاء الدول والإمبراطوريات على قيد الحياة والوجود مرتبط بتبني هذا الفكر ، وتحلل وزوال الدول والإمبراطوريات حادث وواقع لا محالة إنني أهمل هذا الفكر ولم يتم بتنفيذ تلك الإجراءات والخطط والتحركات التي يملها أو يحتمل هذا الفكر .

فهل كان محمد - ﷺ - يفكر هذا التفكير ؟

وهل اتخذ من الإجراءات والخطط والقرارات ما يتفق وهذا الفكر ؟

١٥٩ . صخرية خالد - عسر محمود الطراد - صفحة ( ٦٩ ) .

وإذا حدث ذلك ، فَمَن أين لمحمد هذا الفكر وهو لا يتأتى إلا لمؤسس دولة أو منشيء إمبراطورية ، وقد توافرت له التجارب والمحاولات والمعالجات مع سابق خبرة مستمدة من التعليم أو القراءة أو سار على نهج سابق له في هذا المضمار ... وكل هذا لم يتوافر لمحمد ؟

الأمر كان مع محمد فطري أو حدسي ، أملته الظروف والوقائع والأحداث مع ما توافر لمحمد من صفاء ذهن ونظر ثاقب وإحساس بالمسئولية وتحمل تبعات دوره كقائد وزعيم .

فحينما هاجر من مكة إلى المدينة . ورأى أن المدينة بكل ما وفرت له من أمن واستقرار وحماية ، تصلح أن تكون قاعدة صلبة وحيوية ينطلق منها الإسلام والمسلمون ، وأدرك أن أي دعوة في بداية عهدها - لكي تستقر وتستغلظ ونـ يـ شارها - لابد أن يتوافر لها عنصر الأمن ولن يستطيع أن يوفر لها عنصر الأمن إلا بالقضاء على مصادر الخطر والتهديدات من حول المدينة ، وهي تلك القبائل من العرب والأعراب المحيطة بالمدينة ، فهي إما أن تغير على المدينة . أو تعاون أو تتعاون مع غيرها . فبدأ بتنظيم السرايات والغزوات كلما سمع على نية أو تهيبء إحداها للإغارة على المدينة ، ودخل في حروب - مع بعضها منتصرا ، والبعض قامت بينه وبينها معاهدات للدفاع المشترك ، أو عدم التعاون مع الآخرين عليه . ولم يغفل محمد عن أهم خطر يهدد الدعوة وهي في مهدها ، وهو الخطر اليهودي ، فهم يمثلون - بأنفسهم - خطرا وتهديدا على الإسلام . أو من خلال تعاونهم أو تحريض المكيبين والقبائل الأخرى ، فكان الرسول يتربص بهم حتى استأصلهم من الجزيرة العربية كلها .

وبقيت مكة تمثل التهديد الأكبر للمسلمين والإسلام ، وبعد حروب ومعاهدات واتفاقات ونقض لتلك المعاهدات من جانب المكيبين . تم لمحمد فتح مكة .

فهل استنفذ الفكر الإستراتيجي أغراضه بعد فتح مكة . وأصبح الإسلام  
والمسلمون في المدينة وفي غيرها في أمن وسلام ؟

الرسول كان يرى الأمن القومي للمسلمين والإسلام يبدأ من المدينة ويمتد  
إلى جميع فضاءات العالم ، وهو لم يرا الأمن توفيره مناطق يسيطر ويهيمن عليها  
المسلمون من خلال الغزوات والجيوش والانتصارات والفتوح ولكن الذي يوفر  
الأمن للمسلمين هو الإسلام نفسه . فالأماكن والندان والدول التي ينتشر فيها  
الإسلام هي مناطق أمن وأمان للمسلمين . بدليل أنه كان هناك تعاليم لقواده أثناء  
توجههم لغزو قوم أن ينتظروا موعد الصلاة . فإذا سمع الأذان وإقامة الصلاة  
انصرف المسلمون عن القوم بدون غزو .

إذن الذي كان يوفر الأمن لا مناطق يسيطر عليها ولا حوافل الجيوش  
إنما الإسلام نفسه فكل الغزوات والمعارك والحروب التي حاضتها جيوش الإسلام  
لبس من أجل السيطرة على موارد أو إحتلال أراضي أو إخضاع شعوب وأمم  
وجماعات لقوة مهاجمة أو غازية . وإنما لفتح طريق لتلك الأمم للدخول في الإسلام  
وإعطائها الفرصة لتختار- بكل حرية واقتناع . بدون حبر أو إرغام أو اضطهاد  
أو عسف أو ظلم - أي الأديان . فإذا دخل في الإسلام واعتنقت مبادئه . فلها ما  
للمسلمين وعليها ما على المسلمين . ورب سائل يسأل : إذا كان الإسلام حرر الأمم  
والدول من حكامها وأخذ المسلمون مكانهم في الحكم والسيطرة . فما الفرق ؟

الفرق أن الإسلام لم يخضع تلك الأمم والشعوب لسيطرة حاكم أو لهيمنة  
فئة . وإنما طلب منها بكل حرية واختيار أن تدخل في حكم الله . وهذا ليس فيه  
إجبار أو إرغام . فإن شاء الناس أن يبقوا على ما هم من نصرانية أو يهودية أو أي  
ملة أخرى فلهم ذلك ؛ لأن هناك أساس من أهم أسس الإسلام ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي  
الْدِينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ  
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٥٦